كتاب

بداية المبتـــــــدى

في الفقه على مذهب الأمام الأعظم أبي حنيفة النعمان

المقرر تدريسه في كلية الشريعة الاسلامية

ابن عمر قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كيف انتم اذاوقعت فيكم خمس وأعوذبالله أن تكون فيكم أوتدركوهن ماظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية ألا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم . وما منع قوم الزكاة ألا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . وما بخس قوم المكيال والميزان ألا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان . ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله ألا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض مافي أيديهم. وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه ألا جعل الله بأسهم بينهم »

طبع على نفقة حامد ابراهيم كرسون وكل نسخة لم تختم بختمه
فهي مسروقة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد الشاكرين. ونصلي ونسلم على خاتم انبيائك الذى أرسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً (وبعد) فقد ألهمنا الله جلت نعمته أن نخرج للناس كتاب (بداية المبتدى) فى فقه أبى حنيفة رضى الله عنه. ولئن كان الكتاب لصاحب الهداية ولم نخط فيه حرفا لقد انتقينا بمعونة الله نفائسه من شرحه، واستخرجنا درره من صدفه. وأوسعنا له من أوقاتنا ماهو جدير به وبذلنا فيه من عنايتنا ماهو اهل له. واشرفنا على طبعه بأنفسنا حتى نطمئن على مجهود لايقدره إلا اهل العلم الذين يزنون الأمور بقسطاس مستقيم. وقد أردنا بذلك ان يطلع عليه كل مسلم فى فجر نهضة مصر التى ابرمت فيها معاهدة تضمن استقلالها وتصون عليها شرفها ومكانتها حتى يحفزه ذلك الى البحث عن سر معانيه وفهم مغازيه ثم تسمو همته الى الاطلاع على مادونه فقهاء الاسلام فى أزهى عصوره يوم ان كان بيد المسلمين مقاليد الأمور فيستيقن بأن شرائع الاسلام هى التى تحمى الآداب وتهذب النفوس. وتصون على الأمة ثروتها وتوفر عليها متاعبها وتنشر بين ربوعها العدالة وتحقق بين أفرادها المساواة. وتعامل غير المسلمين ممن لهم عهد وذمة معاملة المسلمين: لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم. راجين من الله أن يوقظ الأمة من بلاء طال عليها الأمد فيه فتعمل على احياء كتاب الله وسنة رسوله الأمين وأن يرشد الحكومة الى تنفيذ حدود الله وجعل القضاء كله شرعياً سماوياً وفق ماجاء به الاسلام، وإلغاء القوانين الوضعية المعمول بها الآن حتى نأمن على مستقبل أمتنا

وصيانة أعراضنا وحفظ دمائنا وأموالنا وقد لمسنا بأيدينا مضار الدساتير الوضعيـة وأنها لاتحقق غرضاً ولاتكون أمماً ، ورأينا بأعيننا انقسام الغربيين دولا ،وتفرقهم أحزاباوشيعا. كل يستجم للوثبة ويعمل على انتهاز الفرصة (ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله)

فالنصيحة لأئمـة المسلمين وعامتهم أن يتخذوا القـرآن دستورا والسنة منهاجا وأن لايأخذهم فى الله لومة لائم وألا يقيموا على الانغماس فى الترف فانه يمحق الأمم ويؤذنها بحرب من الله ورسـوله (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيهـا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)

وإنا نضرع الي الله من صميم قلوبنا أن يوفق الأمة حكومة وشعبا الي العمل بالأسلام والتأدب بآدابه والوقوف عند حدوده وأحكامه حتى نسترد مجدنا فى عهد مولانا صاحب الجلالة مليكنا المحبوب (فاروق الأول) ناصر العـلم والدين جعل الله عصره عصر يمن وإقبال ؟

حامد ابراهيم كرسونه . محمد عبد الوهاب بحيرى

رأينا أن نترجم لبعض أعلام المذهب الحنفى باختصار حتى يعلم الناس بعض ما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم

« الامام الاعظم أبو حنيفة »

هو النعمان بن ثابت فقيه العراق وزعيم أهل الرأى وصاحب المذهب المعمول به فى أقطار الاسلام

ولد سنة ثمانين من الهجرة بالكوفة وبها نشأ وأدرك زمن العرب الذين لم تشب لغتهم لحن ولا عجمة وعاصر جريرا والفرزدق فكان من أهل المنطق الفصيح والقول البليغ . وأدرك أربعة من الصحابة ولم يأخذ عنهم وهم : أنس بن مالك وعبد الله بن أوفى وسهل بن سعد وابو الطفيل. وانما أخذ وروى عن التابعين كعطاء بن أبى رباح وهشام بن عروة ونافع مولى ابن عمر. وأخذ فقهه عن حماد بن أبى سليمان الكوفى الفقيه الثقة وقد أخذ حماد الفقه عن ابراهيم النخعى وابراهيم تلقاه عن خاله علقمة بن قيس الذى ولد فى حياة رسول الله ﷺ وتتلمذ لعمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود . وكان هؤلاء الصحابة الاربعة الذين أخذ عنهم علقمة فقهه وعلمه قد آتاهم الله قوة فى استنباط الاحكام من مأخذها ليست لغيرهم فأشرب تلاميذهم حب هذا المبدأ واعتناقه جيلا بعد جيل

انقسم الفقهاء فى العهد الذى نشأ فيه أبو حنيفة الى أهل حديث واكثرهم من الحجاز ، والى أهل رأى واكثرهم من العراق. الاولون يقفون عند ظواهر النصوص من غير نظر الى علل راعاها الشارع فى تشريعه ومن أجل ذلك نراهم أذا لم يجدوا نصا فى المسألة سكتوا ولم يفتوا ألا ندورا. والآخرون لا يقفون عند حرفية النصوص بل كانوا يبحثون عن علل الاحكام وربط المسائل بعضها ببعض ولا يحجمون عن الرأى والقياس أذا لم يكن عندهم نص من

كتاب أو سنة. لانهم رأوا الشريعة الاسلامية معقولة المعنى مبنية على أصول عامة يستقيم عليها أمر الناس وكان بين الفريقين سوء تفاهم. وقد ساعد على نمو الرأى فى العراق وبخاصة الكوفة أن عمر بن الخطاب جعل ابن مسعود قاضيا عليها وكان أشبه الناس بعمر فى الاعتداد بالرأى حيث لا نص فكان قاضيهم ومفتيهم والمؤسس الاول لطريقتهم . وأن عليا اتخذها مقرا لخلافته وكان مضرب المثل فى حل المشكلات ومطمح النظر فى فصل المعضلات. وأن أكثر الصحابة كان قد نزل الكوفة والبصرة اللتين كانتا مهبط الجيوش الفاتحة وكان نزولهم هذا مدعاة للكوفيين أن يقنعوا بما عندهم من الحديث ولا يرحلوا لطلبه بالحجاز. وأن العراق كان قد تأثر ألى حد كبير بالمدنية التى تضع تحت عين المشرع جزئيات كثيرة تحتاج ألى التشريع. وأنه كان موطن الشيعة والخوارج الذين جعلوا يكذبون فى رواية الاحاديث على النبى صلى الله عليه وسلم ترويجا لمذاهبهم الباطلة ونشرا لآرائهم الفاسدة. الامر الذى جعل العراقيين وعلى رأسهم أبو حنيفة يشترطون شروطا شديدة فى قبول مايروى لهم من الاحاديث. فكانت هذه الامور مجتمعة عاملة على الاكتفاء بما عندهم من الاحاديث وقلة ما يأخذون به منها وعلى الاستكثار من القياس متى أعوز النص واعتباره من المآخذ الشرعية للاحكام

لازم أبو حنيفة شيخه حماداً ثمانى عشرة سنة فى بيئة يغلب عليها استعمال الرأى واستخدام القياس - على مابينا - فمهر فى القياس مهارة جعلته ينظر من وراء الحجب ويرى بعين عقله مالا يراه بعينى رأسه . واحاط بمعانى القرآن والاحاديث احاطة جعلته محل اعجاب شيخه ومثار استغرابه وساعده على هذا النبوغ عبقريته الفطرية إذ آتاه الله قلبا عقولا ولسانا ناطقا وذكاء

نادرا لم نعرفه لغيره

ولما أتم تعليمه كان امره فى الفقه عجبا. إذ جمع شتاته وألان قناته واشتغل بالحوادث التى وقعت والتى لم تقع استعداداً للبلاء قبل نزوله حتى يعرف المخرج منه. فزاد علم الفقه اتساعاً وانفسح مجاله انبساطا. وصار ابو حنيفة مرجع الفقهاء وشيخ القياسيين حتى قال سالم التميمى :

وضع القياس أبو حنيفة كله فأتى بأكبر حجة وقياس
وبنى على الآثار رأس بنائه فأتت غوامضه على الآساس
والناس يتبعون فيها قوله لما استبان ضياؤه للناس

فاتخذه العراقيون زعيما فى الفقه واماما . وحجة فيما اشكل عليهم وبرهانا. وسار ذكره فى الآفاق فهرع الناس اليه من كل صوب وأتوا اليه من كل فج. وأثنى عليه اشياخه وتتلمذله أقرانه. واعترف له بالفضل والنبل والسبق فى مضمار الفقه كل من جالسه أو لزمه أو سمع أقواله وآراءه. قيل للأمام مالك هل رأيت أبا حنيفة قال نعم رأيت رجلا لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته . وقال الشافعى من أراد ان يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه فان الناس كلهم عيال عليه فى الفقه وقال أبو يوسف مارأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التى فيه من الفقه من ابى حنيفة. وماخالفته فى شىء قط فتدبرته الا رأيت مذهبه الذى ذهب اليه أنجى فى الآخرة . وكنت ربما ملت الى الحديث وكان هو أبصر بالحديث الصحيح منى . وقال النضر بن شميل كان الناس نياما عن الفقه حتى ايقظهم ابو حنيفة بما فتقه وبينه ولخصه. وقال ابن المبارك يمدح ابا حنيفة فى قصيدة له وهو من أخص تلاميذه

يقايس من يقايسه بلب فمن ذا يجعلون له نظيرا

كفانا فقد حماد وكانت مصيبتنا به أمرا كبيرا
فرد شماتة الأعداء عنا وأبدى بعده علما كثيرا
رأيت أبا حنيفة حين يؤتى ويطلب علمه بحرا غزيرا
اذا ما المشكلات تدافعتها رجال العلم كان بها بصيرا

وقال اسرائيل كان نعم الرجل النعمان ما كان احفظه لكل حديث فيه فقه وأشد فحصه عنه واعلمه بما فيه من الفقه وكان قد ضبط عن حماد فأحسن الضبط عنه فأكرمه الخلفاء والامراء والوزراء وكان اذا ناظره رجل فى شىء من الفقه همته نفسه — وكان مسعر يقول من جعل اباحنيفة بينه وبين الله رجوت الايخاف ولا يكون فرط فى الاحتياط لنفسه

أسس أبو حنيفة مذهبه بالكوفة وكانت طريقته فى الاستنباط ماقاله عن نفسه : إنى آخذ بكتاب الله اذا وجدته فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار الصحاح عنه التى فشت فى أيدى الثقات فاذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت ثم لا أخرج من قولهم الى قول غيرهم .وكان أبو حنيفة عارفا بحديث أهل الكوفة وفقه أهل الكوفة شديد الاتباع لما كان عليه الناس ببلده ، اجتمع معه ألف من أصحابه أجلهم وأفضلهم أربعون قد بلغوا حد الاجتهاد فقربهم وأدناهم وقال لهم : إنى أجمت هذا الفقه وأسرجته لكم فأعينونى فان الناس قد جعلونى جسراً على النار، وأن المنتهى لغيرى واللعب على ظهرى. فكان اذا وقعت واقعة شاورهم وناظرهم وحاورهم فيسمع ماعندهم من الأخبار والآثار ويقول ماعنده ويناظرهم شهرا أو اكثر حتى يستقر آخر الأقوال فيثبته تلميذه الاكبر أبو يوسف حتى أثبت مذهبه على هذا المنهاج شورى .ولم يشأ أن يتفرد بوضعه كغيره

من الأئمة لشدة ورعه ومزيد احتياطه .قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينتصفون منه ويعارضونه حتى إذا قال أستحسن لم يلحقه أحد منهم لكثرة مايورد في الاستحسان من المسائل فيذعنون جميعا ويسلمون له. وقال سفيان الثوري: كان أبو حنيفة شديد الأخذ للعلم ذابا عن حرم الله أن تستحل يأخذ بما صح عنده من الأحاديث التي كان يحملها الثقات وبالآخر من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أدرك عليه علماء الكوفة

روى الحديث عن أبي حنيفة أبو يوسف ومحمد بن الحسن وعبدالله ابن المبارك ووكيع بن الجراح وعبد الرزاق بن همام وآخرون. وأشهر من أخذ عنه الفقه أبو يوسف وزفر ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد وقد صنفوا في مذهبه كتبا وبثوا علمه في اقطار الارض وقد ساعدهم على ذلك وجاهتهم عند بني العباس وتدوين العلوم في عهدهم

وكان في عصره من كبار العلماء بالكوفة ثلاثة :سفيان الثوري من أئمة الحديث ـ وشريك بن عبد الله النخعي الذي كان قاضيا على الكوفة وقد اشتهر بعدله في قضائه وكثرة صوابه وحضور جوابه ـ وابن ابي ليلى الذي كان قاضيا على الكوفة ثلاثا وثلاثين سنة لبني أمية ثم لبني العباس وهو من أهل الرأي، وكان أبو حنيفة يستفتى في بعض أقضيته فيفتي بخلاف ما قضى فيتأثر لذلك ابن أبي ليلى

أدرك أبو حنيفة انتقال الخلافة من بني أمية الى بني العباس. وكانت الكوفة مركز الحركة الكبرى في هذا الانتقال ولم نعرف له في تلك الحركة ذكرا سوى أن ابن هبيرة والي العراق من قبل مروان بن محمد عرض عليه القضاء فأبى فضربه من أجل ذلك بالسياط وهو على الامتناع

فلما رأى ذلك خلي سبيله. ولما اسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد واستقدم اليها أبا حنيفة فى جملة من العلماء عرض عليه القضاء أيضا فأبى فأوجعه ضربا بالسياط وهو مصر على الاباء ثم أودعه فى السجن إلى أن مات به سنة ١٥٠ه ولئن كنا نعقل أباء أبى حنيفة عن تولى القضاء وهو اشرف المناصب بعد الأمارة لا نكاد نعقل ضربه بالسياط وهو نهاية الاحتقار لمجرد امتناعه عنه لاسيما أن كثيراً من علماء الكوفة وبغداد كانوا يصلحون لتولية القضاء فلا يعز على ابن هبيرة ولا على المنصور ان يوليا غير أبى حنيفة. فالظاهر أن اهانتهما له كانت لأسباب سياسية يضيق بنا المجال عن ذكرها.

كان ابو حنيفة رحمه الله تاجر خز بالكوفة وكان معروفا بصدق المعاملة والنفرة من المماكسة كثير الاحسان والمواساة لاخوانه وتلاميذه وأئمة الحديث وكل من رآه أو عرفه. وكان عظيم الامانة يؤثر رضا الله على كل شيء ولو أخذته السيوف فى الله لاحتملها وكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعا

وقف أبو حنيفة وقفة المجاهدين الصادقين امام الخوارج والمعتزلة الذين كانوا ينشرون فى عصره اهواءهم وبدعهم، فرد عليهم وبين مافى معتقداتهم من الخطر على الاسلام وأهله. فانتصبوا لحربه والطعن عليه فى دينه وعقيدته، ومافتئوا يرشقونه حيا وميتا بالعظائم كالأرجاء والتجهم ليبعدوا الناس وطلاب الفقه عن مذهبه. ولما لم تجدهم أقاويلهم انطلقوا يدسون لمذهبه ويتقولون عليه مالم يقل ويختلقون عليه أحاديث لم يروها. وانتصب قوم آخرون يطعنون فى علمه وفقهه حقدا عليه وحسدا من عند انفسهم أو قصورا منهم فى العلم وضعفا فكان ابو حنيفة يقول

أن يحسدونى فأنى غير لائمهم ... قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم مابى ومابهم ... ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وكثيرا ما كان يقرأ قوله تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ويقول اللهم من ضاق بنا صدره فان قلوبنا قد اتسعت له. فرد الله كيدهم فى نحورهم وكتب لمذهبه البقاء فعول عليه العلماء واعتبروه ردا وقبولا (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض)

محمد عبد الوهاب بحيرى

(الامام أبو يوسف)

مولده ونشأته : — لو أردنا أن نتحدث عن أبى يوسف حديثا شاملا لكي نعطى للقارىء صورة واضحة عن حياته الحافلة لطال بنا الحديث وتشعبت علينا نواحى القول. وذلك لأن أبا يوسف عاصر الدولة العباسية فى أزهى أيامها ، والدوله العباسية من الدول التى مجد التاريخ شأنها وبلغت الحضارة الرقى والعمران فى أيامها مبلغا لا تستطيع أن تناله الا الدول التى على رأسها أبطال مفكرون . ولكن رغم هذا سنحاول جهد المستطاع أن نترجم لهذا الأمام ترجمة تعطينا صورة قريبة عن حياته ومقدار تفكيره وثقافته العلمية .

أبو يوسف عربي الأصل فهو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد ابن بجير الانصارى وأم سعد حبتة بنت مالك من بنى عمرو بن عوف ، وسعد هذا احد اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اشترك فى صغره فى بعض الغزوات فقد روى أن النبى عليه السلام رآه فى واقعة الخندق يقاتل قتالا شديدا رغم حداثة سنه فمسح بيده الشريفة على رأسه

ولد أبو يوسف فى الكوفة سنة ١١٣ هـ ونشأ فيها ثم ارتحل الى بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية وبقى فيها الى ان مات . . ومع أنا لم نعرف بالدقة النشأة الأولى لأبى يوسف ولا كيف تعلم القراءة والكتابة فانه يمكن القول بأنه نشأ نشأة بسيطة بين أبوين فقيرين يكسبان قوتهما

بالعمل والكفاح. فكان طبيعيا ان يدفع به أبواه الى طريق العمل لكسب العيش فأسلماه الى قصار يعمل عنده غير أن أبا يوسف لم يطمئن الى هذا اللون من الحياة فكان يذهب الى حلقة أبي حنيفة لطلب العلم وكان أبوه ينكر عليه ذلك وينصحه بالاستمرار فى طريقه الاول

روى عنه أنه قال كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال فجاء أبي يوما وأنا عند ابى حنيفة فانصرفت معه فقال يابنى لاتمدن رجلك عند أبى حنيفة فان ابا حنيفة خبزه مستو وانت تحتاج الى المعاش فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة ابى . فتفقدني أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت اتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه قال لى ماشغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى فجلست . فلما انصرف الناس دفع إلى صرة وقال استمتع بهذه . فنظرت فاذا فيها مائة درهم . فقال لى الزم الحلقة واذا نفدت هذه فاعلمنى . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ثم كان يتعاهدنى وما أعلمته نحلة قط ولا أخبرته بنفاد شىء وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت «وحكى» أن والده مات وتركه طفلا صغيرا وان أمه هى التى انكرت عليه حضوره حلقة أبى حنيفة . روى عنه انه قال توفى أبى ابراهيم بن حبيب وخلفنى صغيرا فى حجر امي فأسلمتنى الى قصار اخدمه فكنت أدع القصار وأمر الى حلقة ابى حنيفة فأجلس أستمع فكانت امى تجىء خلفى الى الحلقة فتأخذ بيدى وتذهب بى الى القصار وكان ابو حنيفة يعنى بى لما يرى من حضورى وحرصى على التعلم فلما كثر ذلك على أمى وطال عليها هربى قالت لأبى حنيفة ما لهذا الصبى فساد غيرك ، هذا صبى يتيم لا شىء له وانما أطعمه من مغزلى وآمل ان يكسب دانقا يعود به على

نفسه . فقال لها الامام : مرى يارعناء هذا هو ذا يتعلم أكل الفالوذج »

وسواء أكان هذا أم ذاك فأن أبا يوسف قد كان شديد الحرص على التعلم ولذلك بقى فترة مترددا بين الأجابة لرغبته والاستماع لنصيحة أبويه حتى تفطن استاذه أبو حنيفة لمواهبه وتوسم فيه الذكاء والنبوغ فواساه بما شرح صدره وازال حاجته فلازم حلقته

حياته العلمية : - هذا الدور من حياة أبى يوسف كان واضحا أكثر من الدور الأول. لما ادرك أبا يوسف التميز أخذ الحديث عن سليمان التيمى ويحيي بن سعيد الأنصارى وهشام بن عروة وليث بن سعد وغيرهم من طبقتهم التى اشتهرت بالحفظ وتمام الضبط فكان له فى هذا الفن أثر يحمد ثم تلقى الفقه عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلي الذى تولى القضاء بالكوفة فى زمن بنى أمية وبنى العباس وبعد أن أقام معه مدة تحول عنه الى أبى حنيفة النعمان فلازمه حتى كان الغالب على مذهبه فقه أبى حنيفة . ولقد كان العصر الذى نشأ فيه عصراً نشطت فيه الحركة العلمية نشا طاقويا واتسع نطاقها وظهر فيه اساطين العلماء والأئمة المجتهدين وتمثلت المدرستان اللتان وجدتا على عهد الصحابة رضى الله عنهم مدرسة أهل الرأى وأهل الحديث وقوى الجدل بين زعماء المدرستين فتأثر ابو يوسف بهذه البيئة ونشأ جامعا بين الفقه والحديث وأن كان قد آثر فى اجتهاده طريقة اهل الرأى على طريقة أهل الحديث ولذلك عد منهم وبالرغم من الخصومة العلمية العنيفة بين المدرستين فقد أثنى كثير من أهل الحديث على أبى يوسف وشهد بفضله . . روى عن يحي بن معين أنه قال : ليس فى اصحاب الرأى أكثر حديثا ولا أثبت من أبى يوسف وقال أيضا أبو يوسف صاحب حديث وصاحب سنة - وهو يعد من أفضل أصحاب أبى حنيفة

وافقهم واكثرهم اتباعا للحديث ولذلك كان أبو حنيفة يثق به ويشهد بفضله قال حماد بن أبي حنيفة : رأيت الأمام جالسا يوما وعن يمينه ابو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فى مسألة فلا يقول ابو يوسف قولا الا أفسده زفر ولا يقول زفر قولا الا أفسده ابو يوسف الى وقت الظهر فلما أذن المؤذن رفع ابو حنيفة يده فضرب بها على فخد زفر وقال لاتطمع فى رياسة بلدة فيها ابو يوسف وقضى لأبى يوسف على زفر

حج ابو يوسف مع الرشيد مرة فلقى الأمام مالكا بالمدينة فناظره فى بعض المسائل واطلع هناك على ما عندهم من الأحاديث ولما رجع الى العراق عدل عن رأيه فى بعض المسائل وخالف استاذه ابا حنيفة فى بعض آرائه ولقد كان لابى يوسف الاثر الاول فى نشر مذهب الامام ابى حنيفة والعمل على نصرته وتقويته وخصوصا عند ما انتهت اليه رياسة القضاء وكان بيده أمر تولية القضاء حتى قال عمار بن مالك : ما كان فى اصحاب أبي حنيفة مثل أبى يوسف ولولاه ماذكر ابو حنيفة ولا محمد بن أبى ليلى ولكن هو الذى نشر قولهما وبث علمهما وهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب ابى حنيفة مثل كتاب الصلاة وكتاب الزكاة وكتاب البيوع ووضع كتابا فى الرد على الامام مالك وكتاب الجوامع الذى الفه ليحيي بن خالد البرمكى وهذا الكتاب يحتوى على اربعين كتابا ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به وكتاب الخراج الذى الفه بناء على طلب هارون الرشيد وكتبا كثيرة غيرها ولكن مع الأسف الشديد لم يصل الينا من هذه المؤلفات الا كتاب الخراج الذى تضمن كثيرا من المبادىء والقواعد المعمول بها فى التشريعات المالية الحديثة اذ تعرض فيه لبيان أرض العشر وأرض الخراج ومقدار مايؤخذ

من كل منهما ثم بين مايؤخذ من الاشياء المستخرجة من البحر. وتشبه آراؤه فى ذلك ماتعمل به الحكومات الاسلامية الحاضرة. ولقد أخذ كثير من العلماء العلم عن أبي يوسف فأخذ عنه محمد بن الحسن الشيبانى فقه أبي حنيفة وروى عنه بشر بن الوليد الكندى وعلى بن الجعد واحمد بن حنبل ويحيى ابن معين وكثير غيرهم من علماء ذلك العصر. ولقد عد كثير من علماء الحنفية أبا يوسف من مجتهدى المذهب والمحققون يعتبرونه مجتهدا مطلقا ولكنه لم يشأ أن يفرد له مذهبا مستقلا تأدبا مع استاذه أبي حنيفة. ونحن نميل الى هذا الرأى لان التقليد لم يكن معروفا فى ذلك العصر

أبو يوسف فى القضاء — يصور لنا أبا يوسف خير تصوير ماأثر عنه من قوله (رؤوس النعم ثلاثة: نعمة الاسلام التى لاتتم النعمة الابها ونعمة العافية التى لاتطيب الحياة الابها ونعمة الغنى التى لايتم العيش الابها) فأنت ترى من هذه الجمل أن أبا يوسف تطمح نفسه الى قلب عامر بالاسلام وصحة كاملة وبسطة فى المال ليتم له بذلك نعيم الحياة وسعادتها ومن نظر رأى أبي يوسف الذى ابداه لأستاذه حينما عرض عليه القضاء واكرده عليه فطلب المهلة حتى يستشير اصحابه فاشار عليه أبو يوسف بتوليته فغضب منه الأستاذ وقال (كانى بك قاضيا) واذ علمنا مع هذا ان أبا يوسف ولى القضاء لزهرة الخلفاء من بنى العباس وهم المهدى والهادى والرشيد وكان موضع الحظوة منهم ولم نعثر على رواية صحيحة تدلنا على اعراض أبي يوسف عن توليته القضاء. خرجنا من كل ذلك الى أن أبا يوسف كان قاضيا بطبعه وكان مبتكرا فى القضاء لاتصعب عليه المسائل ولا تغيب عنه أوجه حل المشاكل ولقد كان يلقب بقاضى القضاة وهو أول لقب فى الاسلام لقب به قاض أذ كان قاضى المشرق والمغرب فلم يكن يقلد القضاء ببلاد العراق

وخراسان والشام ومصر الامن اشار به أبو يوسف ولقد كان يتفقد أحوال القضاة ويرقبهم عن كثب وبجانب ذلك نرى أبا يوسف يسعى الي أن يخص العلماء بزى خاص ليتميزوا به عن السوقة والدهماء وغيرهم من الطوائف ولقد أخذ حب الرشيد لأبي يوسف مكانا فسيحا فى قلب الرشيد لم ينله أحد غيره من علماء عصره ولا من رجال حكومته فكثيرا ما كان يجلس الرشيد وبجانبه ابو يوسف ويشتد الجدل العلمى بين أبي يوسف وغيره من العلماء فيظهر الرشيد ارتياحه الى آراء ابى يوسف ولم يكن لأحد من الخلفاء سلطان على ضمير ابى يوسف وعقيدته فى الحق وأصدق شاهد على ذلك ما تلمحه فى خطبة كتاب الخراج الذى عمله بناء على طلب الرشيد كما تقدم فيظهر لنا أبو يوسف صريحا حرا فى قول الحق فيقول(يا أمير المؤمنين أن الله وله الحمد قدقلدك أمرا عظيما ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب أقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار فأن أسعد الرعاة عندالله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ولا تزغ فتزيغ رعيتك واياك والامر بالهوى والاخذ بالغضب ولم آلك والمسلمين نصحا ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه) هذه الجمل وأمثالها مما ملئت به خطبة كتاب الخراج تعطينا صورة صادقة لابى يوسف وتبين لنا حالته النفسية وتصلبه فى الحق وتدلنا على أنه أنما قبل القضاء ليساهم فى الحياة العملية وليبين للولاة طريقا تمنعهم من ظلم الرعية والتعسف فى معاملتها وكان ذكي القلب حسن التخلص محبا للعدل سمعه بعض اصحابه يوما يقول (صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة فما أظن أجلى إلا وقد قرب فما كان إلا شهور حتى مات فى زمن الرشيد وهو على القضاء سنة ١٨٢هـ وقد قال عندموته

(ياليتني مت على ما كنت من الفقر ولم أدخل فى القضاء على انى ما تعمدت بحمد الله ونعمته جورا ولا حابيت خصما على خصم من سلطان ولا سوقة اللهم انك تعلم انى لم أطأ فرجا حراما قط وأنا أعلم اللهم انك تعلم أنى لم آكل درهما حراما قط وانا اعلم اللهم انك تعلم انى لم أجر فى حكم حكمت به بين عبادك متعمدا ولقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك وكل ما اشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك وكان عندى والله ممن يعرف امرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه) ؟

حامد ابراهيم كرسون

الامام محمد بن الحسن

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى صاحب ابى حنيفة وراوية مذهبه ومذهب أصحابه وأمام اهل الرأى بالعراق

كان ابوه الحسن دمشقيا من أهل قرية تسمى (حرستا) وكان فى جند أهل الشام فقدم العراق ونزل ببلدة (واسط) فولد له محمد هذا بها سنة ١٣٢ هـ

نشأ محمد بالكوفة فى عصر كان فيه الفقه على طريقتين طريقة أهل الرأى والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان أهل الحجاز اكثر رواية للحديث من اهل العراق لان المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان اشتغالهم بالجهاد اكثر فنشأ عن هذا استكثار العراقيين من القياس واحجام الحجازيين عنه الا فى ظروف نادرة وكان بين الفريقين سوء تفاهم أزال أبو يوسف بعضه لما رحل الى الحجاز وكان مركز الخلافة الاسلامية

مدينة بغداد بناها المنصور العباسى واستدعى اليها كثيرا من العلماء فكان من الطبيعى أن يذهب أليها محمد بن الحسن مع استاذه أبى حنيفة وكان الخلفاء العباسيون أذ ذاك يشجعون العلم والعلماء

طلب محمد العلم والجو الذى يحيط به - على ما وصفنا - فاصطبغ بصبغة العراقيين وسمع الحديث من أبى حنيفة وسفيان الثورى ومالك وأبى يوسف القاضى وآخرين. وأخذ فقهه عن أبى حنيفة ولم يجالسه كثيرا لأن المنية باغتته ومحمد حدث. فأتم الطريقة على أبى يوسف وكان فيه عقل وفطنة فنبغ نبوغا عظيما فى الفقه وغلب عليه الرأى فعرف به وتقدم فيه واصبح صاحب غوص فى المسائل واستنباط احكامها من الكتاب والسنة والقياس حتى كان أكثر أصحاب أبى حنيفة تفريعا وصار هو المرجع لأهل الرأى فى حياة أبى يوسف فكان ذلك مدعاة وحشة استمرت بينهما ألى وفاة أبى يوسف

رحل محمد ألى المدينة وأخذ عن مالك وأقام على بابه ثلاث سنين أو يزيد وسمع منه لفظا أكثر من سبعمائة حديث وله فى موطأ مالك رواية خاصة عنه وقد عقب أحاديثه بما عليه العمل عند أبى حنيفة موافقا أو مخالفا وبين السبب الذى من أجله كان الخلاف فكان له فى فن الحديث شأن عظيم وممن رواه عنه محمد بن أدريس الشافعى وأبو سليمان الجوزجانى وهشام بن عبيد الله الرازى . وكان له ببغداد مجلس خاص بروايته فكان أذا حدث عن مالك تكاثر عليه الناس وأذا حدث عن غيره لم يحضر ألا القليل فيقول ما أعلم احدا أسوأ ثنا على أصحابه منكم. أذا حدثتكم عن مالك ملأتم على الموضع وأذا حدثتكم عن أصحابكم أنما تأتون متكارهين

جمع محمد بين الفقه والحديث وألف الكتب النافعة فذاع صيته فى الآفاق وقد قابله الشافعى رحمه الله ببغداد وقرأ كتبه وناظره فى كثير

من المسائل. وشهد له الشافعي بطول الباع في الفقه وقوة الحجة في المناظرة فقال: أمن الناس علي في الفقه محمد بن الحسن، ما ناظرت أحدا في مسألة فيها نظر ألا تبينت في وجهه الكراهة ألا محمد بن الحسن وقال: حملت عن محمد بن الحسن وقر بختي كتبا. وقد طلب الشافعي اليه مرة ان يرسل له كتبا ينسخها فأبطأ عليه محمد رحمه الله فكتب اليه الشافعي يقول

قولوا لمن لم ترعين من رآه مثله
ومن كأن من رآه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله
لعله يبذله لاهله لعله

فبعث اليه الكتب من وقته.

برع محمد رحمه الله في علوم العربية براعة جعلت الألسنة رطبة بالثناء عليه وكان خفيف الروح حاضر الجواب يحسن التخلص من المآزق. قال أبو عبيد: ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن. وقال الشافعي: ما رأيت سمينا أخف روحا من محمد بن الحسن وما رأيت افصح منه كنت اذا رأيته يقرأ كأن القرآن نزل بلغته. واذا أخذ في المسألة كأنه قرآن ينزل لا يقدم حرفا ولا يؤخره وكان يملأ العين والقلب وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن وما رأيت أعقل منه

لمحمد رحمه الله تصانيف كثيرة منها كتب ظاهر الرواية الستة وهي المبسوط واشتهر بالأصل لأنه صنفه أولا ثم الجامع الصغير ثم الجامع الكبير ثم الزيادات ثم السير الصغير ثم السير الكبير. وانما سميت بظاهر الرواية لروايتها عنه أما بطريق التواتر أو الشهرة. حوت هذه الكتب مسائل مروية عن أصحاب المذهب وهم أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وقد يلحق بهم زفر والحسن بن زياد وغيرهما ممن تلقى الفقه عن أبي حنيفة وما.

لم يحك محمد فيه خلافا فهو قولهم جميعا .

وقد قام في أوائل المائة الرابعة الحاكم الشهيد بجمع مسائل هذه الكتب الستة مع حذف ما كان مكررا منها في كتاب سماه (الكافي) وقد شرحه السرخسي بشرح عظيم سماه (المبسوط) تلقاه الحنفية بالقبول حتى قال قائلهم

عليك بمبسوط السرخسي أنه هو البحر والدر الفريد مسائله
ولا تعتمد ألا عليه فأنه يجاب بأعطاء الرغائب سائله

ولمحمد كتب أخرى تسمى بالنوادر رويت عنه بطرق لا توجب الاطمئنان كالكتب الستة وهي الرقيات والهارونيات والكيسانيات والجرجانيات. وله كتاب الآثار. ومما لا نزاع فيه أن كتبه هي التي ضمنت البقاء لمذهب أبي حنيفة وأصحابه . وعليها أعتمد الحنفية في كل عصر لوصولهم أليها دون كتب غيره الا ندورا . والمحققون على أن محمدا كان مطلق الاجتهاد خالف شيخه فيما ظهر له دليله . وآراؤه عند الحنفية في المقام الأول بعد أبي حنيفة وأبي يوسف

اتصل محمد رحمه الله بأمير المؤمنين هارون الرشيد فعظمه وأكرمه واستفتاه فيما يهمه فملأ عينه وقلبه وولاه القضاء ولما خرج الرشيد الى الري الخرجة الاولى أمره هو والكسائي أن يخرجا معه اليها فماتا بها سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد: دفنت اليوم اللغة والفقه. ورثاهما بعض الشعراء فقال

أسيت على قاضي القضاة محمد فأذويت دمعي والعيون هجود
وقلت أذا ما الخطب أشكل من لنا بأيضاحه يوما وأنت فقيد
وأقلقني موت الكسائي بعده وكادت بي الارض الفضاء تميد
هما عالمانا أوديا وتخرما فما لهما في العالمين نديد

محمد الهادي هاشم
طالب بكلية الشريعة الاسلامية